تفنيد المزاعم

صورتان متضادتان لعقيدة الإسلام ورسالته

(ردا على ما كتبه كريغ وين بعنوان: محمد رسول الهلاك)

(٢)

الدكتور / صلاح الدين الندوي، الأزهري

إن الجهاد الإسلامي من جهة، وظاهرة العولمة الغربية من جهة أخرى، يجيشان في طياتهما بالكثير من المشاعر اللاعقلانية الهائجة والخلط الفكري والمعنوي. وهذه الأشياء تتطلب دراسة دقيقة، لأنها لم تحلل بعد بالشكل الكافي. صحيح أن موازين القوى ليست متكافئة، وإنما مختلة تماما لصالح القوى الغربية، ولكنهما يؤديان إلى النتيجة نفسها تقريباً.

وهنا ينبغى أن نعيد النظر أيضا في الأطروحة التي دافع عنها المؤرخ البلجيكى (هنرى بيرين) فى الثلاثينات من هذا القرن. و نلاحظ أن هذه الأطروحة قد عادت إلى الساحة من جديد مع ظهور الصدام الحالي بين الإسلام والغرب. من المعلوم أن هذا المؤرخ كان قد تحدث عن حصول كسر دائم في حوض المتوسط بدءاً من ظهورالإسلام الأول في هذا الحوض، لقد حصل تشقق أو صدع حقيقي بسبب هذا الظهور و ذاك التوسع. والمراد من الصدع هنا العنف، وبالتالي إرادة في القوة والهيمنة. فالعنف مر تبط بالقوة. و إرادة القوة يدعمها أو يبررها الجهاد (كحرب مقدسة) في الأوساط الدينية، كما تبررها الحرب العادلة أو الشرعية في الأوساط العلمانية. ولكن من يتحدث عن الجهاد بالمعنى الديني يتحدث أيضا عن اللاهوت و رهانات المعنى. هكذا تتمفصل إرادة القوه مع رهانات المعنى في كلمة الجهاد. وبالتالي فالجهاد يحتوي على كلا الجانبين. المعنى والقوة.

فلا يمكننا أن نحصر مفهوم الحرب المقدسة في الدائرة الدينية و حدها، فهي موجودة أيضا في الدائرة العلمانية. ولكنهم يتوهمون أنهم يتحاشون التلوينات الدينية، إذ يغيرون المصطلح فيتحدثون عن الحرب العادلة أو الشرعية بدلا من الحرب المقدسة أو الجهاد. (١)

(١) نقد العقل الديني لمحمد أركون، ص: ١٦١ – ١٦٥، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٨م.

ولذلك نرى أن أصوات الجهاد ترتفع دائما من الإرادات القوية للشعوب، و عزائمها الجبارة و إيمانها الراسخ بالعدالة الإلهية، كما ارتفعت في الماضى أصوات الجهاد من الشعوب الإسلامية بعد أن أنهكتها تصرفات الظالمين الأقوياء المجنونة، وأعمالهم التدميرية الموجهة ضدها. والحرب ضد الإرهاب هي أصلا شنت ضد الضعفاء العزل من المسلمين العرب و غيرهم من منبع القوة، والتظاهر بامتلاك أسلحة فتاكة، و تكنولوجيا حديثة، فيجب ألا تخاف هذه الدول القوية التي تنادي بالعولمة لفرض نظام اقتصادي ، ومادي، وسياسي موحد على دول العالم لصالحها، والتي تتظاهر بعضلاتها العسكرية القوية ضد جهاد المجاهدين الضعفاء، ولكن الظالم القوي الذي يظلم الضعيف المظلوم يعي بشعوره الداخلي ما هوالحق؟ وما هوالباطل؟ ثم المغير الذي يحتل أراضي الشعوب الضعيفة بالقوة، هو لا يستطيع أن يتنفس بالاطمئنان، لأنه يشعر بخطورة إمكانية المواجهة مع شعوب هذه الأراضى المحتلة كل لحظة، بل كأنه يسمع أجراس الخطر، و يعتبره و شيك الحدوث. والظالم القوي يعلم هذه الحقيقة أيضا ماذا سيحدث إذا وقعت المعركة بينهما؟ من الذي يخسر و ينهزم؟ ومن الذي يكسب و ينتصر؟ و يعلم أيضا أن حساب النصرة والهزيمة يكون دائما إذا كانت قوى الفريقين المتعاركين متساوية، ولكن إذا كان أحدهما قويا غالبا، والآخر مغلوبا و مقهورا، فلا يمكن تصور الانتصار في المعركة للقوي الغالب، لأنه غالب من الأول، ثم إن الغالب القوي يستطيع بقوته الهائلة تدمير قوة عدوه الضعيف المظلوم بالكامل، إلا أنه يعلم أنه لا يستطيع أن يقهر العزائم الجبارة والإرادة القوية لتلك الدول الضعيفة و شعوبها المنهارة، لأن العزيمة الجبارة والإرادة القوية للشعوب أمر معنوي، لا تقهر أبدا، وهي لا تتزعزع أبدا، والحروب تنتهي، ولكن نار الغضب والثأر والانتقام والكراهية فى قلوب الأجيال القادمة للشعوب المظلومة لا تخمد أبدا، و إنما تبقي شعلة دفينة في رماد جثث أمجادها، و تشعل منها الأجيال اللاحقة مشاعلها للثورة العارمة ضد الظالمين، وهي تؤمن بأن المعركة لا تحسب بالزمن في تاريخ الشعوب، وهي لا تنسى أسماء أبطالها الشهداء، وتعتقد بأن الموت بالكرامة أهون من الحياة في عبودية الظالمين الغاصبين عندهم، وهي

تؤمن بأنهم أحياء عند ربهم، فهي تقاتل العدو جيلا بعد جيل من أجل استرداد حقوق أمجادها. وهذا هو ما يسمى الجهاد عند المسلمين، ولذلك ترتعش عضلات الظالمين الأقوياء باسم الجهاد المقدس. والتاريخ خير شاهد على أن المسلمين دائما كانوا في القلة، كما هوالحال الآن، ولكنهم حملوا راية الجهاد المقدس لاسترداد حقوق الشعوب الضعيفة من القتلة والمجرمين الظالمين، وكانت المواجهة بين العدد القليل من المسلمين المستضعفين والعدد الكثير للغالبين، ولكن الله سبحانه و تعالى كتب الفوز والنصرة دائما في حق المسلمين، إن الشعوب الإسلامية تؤمن بأن الموت والحياة في يد الله سبحانه و تعالى، فإذا استشهد أحد في سبيل استرداد حقوق أفراد أمته، فهو لن يموت أبدا، وله أجر عظيم عندالله يوم يقوم الحساب، فلا يخاف المؤمن وهو في براثن الموت. وعلى عكس ذلك الشعوب الغربية فصلت الدين من نظام حياتها السياسي والاجتماعي، وبدأت تعتمد على نظرة مادية بحتة، وأهملت التنزيل الإلهي، والنتيجة هي كما ظهرت أن الطبيعة غلبت على التعاليم والثقافة المجردة من التنزيل، وأصبح الإنسان للإنسان ذئبا ضارا ـ كما قال هوبز ـ

واتهم المؤلف بأن محمدا (ﷺ) مارس الجنس بدون تمييز. وهذا افتراء و بهتان عظيم. لأن نبينا ﷺ كان ذا حسب و نسب في قومه. والمؤلف لا يعلم ما هي أهمية قرابة الحسب عند العرب، وكذلك لا يعلم أن نبينا ﷺ هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي. فأبوه عبدالله من أسرة بني هاشم القوية في مكة، وأمه آمنة بنت وهب من خيار نساء قريش، قد اشتهر بعظمة أجداده في الجاهلية بالسيادة، أو بالتجارة الرابحة في مكة: فقصي هو الذي يرجع إليه الفضل في استيطان قريش مكة بعد أن قادها في حرب ناجحة ضد خزاعة (١) وهاشم هو أول من سن الرحلتين لقريش وهما (رحلة الشتاء والصيف) وعبدالمطلب هوالذي شرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه، فأعاد حفر بئر زمزم بعد أن طمست، وكان يستقي منها الحجاج الوافدون على مكة. والنبي (ﷺ) فقد أباه وهو في بطن أمه آمنة، وفقد أمه بعد ذلك بقليل، فعاش يتيما بعد هما في

(١) ابن هشام جـ ١ ص:٧٥و ٧٩.

رعاية جده عبدالمطلب، ثم عمه أبي طالب، وكل منهما أغدق عليه من عطفه و حنانه، وما أن شب طفلا حتى اشتغل راعيا للأغنام عند عشيرة بني سعد مثلما فعل معظم الأنبياء قبله، وقد خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في التجارة، وشهد معه إحدى و قائع البدو المشهورة بحرب (الفجار) لوقوعها في الأشهر المحرمة عند عرب الجاهلية. وبعد ذلك تزوج من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي أيضا كانت امرأة عظيمة الشأن، وذات حسب و نسب، و شرف و مال، وذلك على الرغم من أنها كانت تكبره سنا، بقي معها، فلم ينكح عليها امرأة حتى و فاتها، وهذا يدل على أنه ﷺ كان زوجا كريما وفيا مخلصا لزوجته، وخاصة في تلك البيئة التي تعودت تعدد الزوجات. (١)

وهكذا قضى النبي ﷺ فترة حياته الأولى منزها عن المذمومات (٢) فلم يشترك في عبادة الأصنام، و شب والله يعصمه و يحفظه من سيرة الجاهلية، لما يريد من كرامة الرسالة، كما حبب إليه الخلوة، فكان يقضي شهرا كل سنة يتحنث عن الدين القويم بالتأمل و الخلوة في غار (حراء) من جبال مكة و ربما كان يستخدم هذا اللفظ للبحث عن بقايا دين إبراهيم عليه السلام. وكان يعرف بالصادق بأخلاقه الفاضلة و تصرفاته الصريحة، حتى اشتهربين عشيرته و أهله و سموه (بالأمين) لاستقامته وكمال خلقه. فأين هذه الوثائق التاريخية و أين كلام هذالمؤلف الفتري، فإنه إذا لم يدرس هذه الحقائق التاريخية في تلك الكتب التي أشار إليها وهو يدعى بأنه درسها كذبا و افتراء، فعليه أن يرجع إلى أساتذته من المستشرقين و خاصة (كارل بروكلمان) صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي) أو غيره ليسمع منهم بالتفصيل ما ذكرناه باختصار شديد عن خير الخلق كله ﷺ. فما ذكره المؤلف من رذائل هي ليست أبدا من صفات ذلك الشخص الذي كان يعرف بخير الخلق كله، و بصفاته الفاضلة وخصائله الحميدة، والذي كان معروفا بالصادق الأمين (ﷺ) في عشيرته

(١) التاريخ السياسى للدولة العربية/د. عبدالمنعم ماجد ص:٩٧-٩٨ مكتبة الإنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، القارة ١٩٦٧م.

(٢) ابن خلدون المقدمة ص:٧٤.

و مجتمعه، فيجب أن يحاسب المؤلف على هذا البهتان في المحاكم الدولية، لأنه بصنيعه هذا خالف ما اتفقت عليه جميع كتب السير والوثائق التاريخية الموثوق بها عند علماء المسلمين والمستشرقين، وذلك بهدف تجريح مشاعر المسلمين في العالم.

وأما ما ذكره المؤلف (أن محمدا كان منحرفا جنسيا بدون حدود) و تظاهر بأنه وجد هذا الكلام وفقا للنصوص الإسلامية التي أشار إليها، ويدعي أنه درسها، فهذا غير صحيح، و إنما في الواقع إنه ردد كلام الحداد في كتابه (المسيح في القرآن) بشيء من المبالغة، يقول الحداد في تحد و صفاقة.

(لم يبن المسيح مثل غيره منازل لأزواجه قرب المسجد، حتى يختلف كل ليلة إلى واحدة منهن بعد صلاة العشاء، بل كان يقضي ليلته في الصلاة إلى الله، لم يكن ليغزو ولا ليقرع بين نسائه، فأيهن خرج سهمها خرج بها معه ،كأنه لا يقدر أن يستغني عن المرأة حتى في معامع الحروب).

ثم حين يعرض الحداد كلام الأستاذ عباس محمود العقاد يرسمه بما لم يقله منطوقا ومفهوما، فيقول: (المسيح وحده ارتفع فوق حاجة الرجل إلى حواء، فعاش بتولا ورفع بتولا. وفي هذا ما فيه من الكمال الذي انفرد به، وليس ذلك من نوع التقصير الجنسي كما يغمز الأستاذ العقاد حيث قال: قال لنا بعض المستشرقين: إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية. قلنا: إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية، لأنه لم يزوج قط، فينبغى ألاتصف محمدا بأنه مفرط الجنسية، لأنه جمع بين تسع نساء). (١)

ب. تعدد الزوجات فى الإسلام

ثم تعدد الزوجات في الإسلام لم يكن، ولن يكون لإشباع الغزيرة العمياء، وإنما هو ضرورة لاستقامة موازين النظام الاجتماعي في الإسلام، فإذا وجد عدد النساء أكثر من الرجال، والنساء يواجهن الفقر والبؤس ولا يوجد من يقف جنبها في الشدة، فماذا يحدث في المجتمع؟ بالطبع يواجه المجتمع خللا يتسرب منه الفساد. إذن أفليس الزواج أفضل من أن

(١) المسيح فى القرآن / الحداد ص:٢١-٢٢.

تحرق المرأة الأرملة نفسها مع جثة زوجها بعد موته، وفاء لحب زوجها الميت، كما جرت العادة في المجتمع الهندوسي قديما في الهند، لأن الأرملة التي كانت تفقد زوجها في حياتها كانت تعيش مكروهة و معذبة، باعتقاد أنها امرأة منحوسة، وجودها هو السبب لموت زوجها، فكان الأفضل أن تحرق هي الأخرى نفسها خوفا من العار الاجتماعي. أفليس من الأفضل أن يتحمل الرجال بشهامتهم نفقات تلك الأرامل أو الثيبات نظرا لمكانة المرأة في المجتمع، ولسد الخلل الذي يتوقع أن يتسرب منه الفساد إلى المجتمع. والمجتمعات التي تخاف، و تخوف الناس من قضية تعدد الزوجات، هي تغمض عيونها عما يحدث في أوروبا في منتصف ظلام الليل، بل لياليها هى نهار للأبالسة، وكم من البنات قتلن فى بطون أمهاتهن من غير ذنب بعد إجراء عملية الفحص الطبي لمعرفة الذكر والأنثى في الصين، و غيرها من دول العالم؟ كم عدد الجنين يرمى إلى الشوارع؟ وكم عدد الصغار اليتامى الذين لا يعلمون من هم آباؤهم ومن أمهاتهم؟ فهؤلاء لا يعرفون هويتهم، وليس أمامهم سبيل لمعرفتها، سوى أن كلا من هؤلاء يسمى نفسه (الولد الطبيعي) لأنه لا يستطيع أن يسمى نفسه ولدا شرعيا حسب الأعراف الاجتماعية. (١) وكل من له الإلمام بزوجات الرسول الكريم ﷺ هو يعلم جيدا كم عدد العذارى منهن، وكم عدد السيدات الثيبات. ثم إعلاء راية الإسلام فوق كل اعتبار، لأن الإسلام دين تأليف القلوب وألفة النفوس. هنا لا يمكن اعتبار تعدد الزوجات انحرافا جنسيا قط، وإنما نحن نسميه دروسا اجتماعية مثالية شريفة، يجب أن تحتذى، و تؤخذ بعين الاعتبار في كل مجتمع.

و ذكر المؤلف أيضا أن الكتب الإسلامية تظهر (أن محمدا وضع الإسلام من أجل سرقة أموال الفرس والبيزنطيين عن طرق الفتوحات الدموية، والمال هوالذي كان دافعا لغزواته).

فنسأل المؤلف الأمريكي متى فتح المسلمون فارس والروم؟ هل تم فتحهما في عهد الرسول ﷺ أو فى عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) والفتوحات الإسلامية التي

(١) الإسلام و حرية الفكر / جمال البنا ص: ٧٣-٧٤ دار الفكر الإسلامى - القاهرة ١٩٩٩م.

يشير إليها بكلمة (الدموية) تدفعنا لنسأله مرة أخرى: هل هناك حرب فى الدنيا كانت خالية من إراقة الدماء؟ وهل الحروب الصليبية كانت خالية من إراقة الدماء؟

و أما موضوع سرقة أموال الفرس والبيزنطيين، فلا شك أنه نظر إلى الإسلام بنظرات مادية غربية، وجعلها نوعا من الاستعمار، فالأمر يحتاج إلى أن نذكر هنا خلفية موجزة عن أوضاع الفرس والروم الدينية والاجتماعية والسياسية قبل الإسلام، ليتضح الأمر أن الإسلام لم يكن ولن يكون استعمارا قط.

إن المجوسية كانت ديانة رسمية للفرس، فقد نشأ إلى جانبها بدعة "المانوية" التي قالت بالأصلين (النور والظلمة) و دخل عليها (مانى) الأصول الثلاثة: (الماء والنور والأرض) حسب طريقة التثليث المعروفة فى المسيحية باسم (الأقانيم الثلاثة) وأنها اختلطت فحدث عنها إله الخير وهو الذي خلق النور وكل شئ مفيد، وإله الشر وهو الذي خلق الظلمة وكل شئ ضار. وإن الصراع مستمر بين الإلهين حتى يكتب الظفر لإله الخير في النهاية.

ثم قتل (مانى) و ظهر زنديق آخر بفارس يدعى (مزدك) أخذ ينشر مذهبا أباح فيه الأموال والنساء وجعلها شركة بين الناس مثل اشتراكهم في الماء والهواء، و سارع اعتناق هذا المذهب كثيرون من ذوى الشهوات، تتبعهم (كسرى أنوشيروان) و قضى على الكثيرين منهم، وأحدث ذلك هزة اجتماعية دينية كان لها أبعد الآثار في بلاد الفرس.

ولم تكن أحوال الفرس السياسية بأحسن من أحوالهم الدينية والاجتماعية فقد كانت الحروب بين الفرس وجيرانهم (الرومان) متصلة و داعية لاستنزاف دماء الشعبين بفرض الضرائب المتنوعة، ولم تتسم الدولة الفارسية فى أواخر أيامها بطابع الاستقرار، لأن استبداد الملوك من آل ساسان وانغماسهم فى الترف قد باعد ما بين الحاكمين و المحكومين، فتوالى خلع الملوك و قتلهم، واضطربت أمور الدولة.

وفي جانب آخر كانت مدينة القسطنطينية عاصمة للدولة الرومانية الشرقية التي كانت تبسط سلطانها على بلاد البلقان، و آسيا الصغرى، والشام و مصر، والشمال الإفريقي،

وكانت الوثنية أول الأمر هى الديانة الرسمية لتلك الدولة، حتى أخذت المسيحية تشق طريقها فيها، و أصبحت الديانة الرسمية لدولة الرومان.

ثم اختلف المسيحيون في طبيعة المسيح عليه السلام، ووقع بأسهم فيما بينهم من أجل ذلك، و حاول الرومان إلزام مخالفيهم بما يعتقدون، فشقى المسيحيون فى الشام و مصر من قسوة الرومان و عنتهم، وفر كثيرون منهم إلى جوف الصحراء، كان على رأسهم بطريق الأقباط (بنيامين) الذي قتل الرومان أخاه، فقلت الأيدي العاملة في الزراعة، وغلت الأسعار، ولم تقتصر آثار هذ التعصب الدينى على المسيحيين المخالفين فحسب، و إنما تجاوزتهم إلى اليهود أيضا، فقاموا بثورة، قتلوا أثناء ها أمير (إنطاكية) فقتل القيصر كثيرين من اليهود.

فكان الشعبان الفارسي والروماني يضيقان بعنت الحاكمين و قسوتهم، ولما آن دور المسلمين أن يتخطوا حدود الجزيرة العربية أخذ الفرس والرومان يتطلعون إليهم باعتبارهم منقذين و مخلصين مما كانوا يرزحون تحته من الاضطهاد القاسي، والطبقة البغيضة التي لم يكن معها للطبقات الدينا كيان، وبهذا يعلل الموقف السلبي الذي وقفه مسيحيو الشام و مصر أثناء الفتح العربي لبلادهم، فقد أصبحت الحياة فيها جحيما لا يطاق. (١)

فنسأل المؤلف الأمريكي ماذا فعل عمر بن الخطاب و عمروبن العاص (رضي الله عنهما) حين فتحوا القدس و مصر، إن تعاليم النبي ﷺ كانت رحمة للعالمين جميعا، و ماذا فعل المستعمرون الغربيون في البلاد الإسلامية؟ يقول محمد إقبال: " وقد جازت أوربا إحسان هذه البلاد الشرقية بالإساء ة من جانبها، وكافأت خيرها بشر، فقد منح الشام أوربا نبيا، رسالته العفة والمواساة، والرحمة، و مقابلة الشر بالخير، والظلم بالعفو، وقد منحته أوربا بدورها مقابل كل ذلك ـ الخمر والقمار والفجور وهجوم المومسات." (٢)

(يتبع)

☆☆☆

---

(١) من حضارة المسلمين للدكتور أحمد مجاهد مصباح ص: ١٠-١١.

(٢) ضرب الكليم للدكتور محمد إقبال ص:٥١ كتبخانه حميدية، دلهى ١٩٨١م